مجلة
البحوث والدراسات العربية



المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

العدد العشرون

١٩٩٢

يصـــدرها

معهد البحوث والدراسات العربية

دور عرب عمان في نقل الحضارة والثقافة العربية والاسلامية في بلاد زنجبار وبلاد الساحل الأفريقي

(١١٥٤-١٢٧٣هـ / ١٧٤٤-١٨٥٦م)

الدكتور عبد الوهاب بن صالح بابعير(*)

مقدمة :

موضوع هذا البحث هو معالجة تاريخية لدور عرب عمان في زنجبار وما حولها من بلاد الساحل الافريقي الشرقي ؛ فالثابت أن هذه المنطقة كانت ولا تزال مسرحا لنشاط عربي اسلامي مكثف مع شعوب الساحل الأفريقي وجزره زنجبار وبمبا ومافيا ومدغشقر وغيرها من الجزر الأفريقية المقابلة للساحل في المحيط الهندي . وقد تبلور نشاط العرب منذ فجر الاسلام إلى أواخر العصور الحديثة إلى قيام دول اسلامية أشهرها دولة عرب البوسعيد العمانية في زنجبار في العصر الحديث ، إضافة إلى ماسبقها من ممالك عربية اسلامية من أبرزها سلطنة كلوة الاسلامية (٩٧٥ – ١٤٩٧ م) .

ولقد التزمنا الدقة العلمية الموضوعية ونحن نحاول مع غيرنا جاهدين أن نؤرخ لهذه المنطقة في تلك الحقبة المشار إليها ، وذلك ثقة منا بأن كل بحث إذا ماتوفر له المناخ العلمي والموضوعي ، وأدرك فيه الباحث ادراكا تاما بالعامل التاريخي والعوامل المساعدة ، يكون بذلك قد أسهم اسهاما جادا في كتابة التاريخ .

ففي هذا البحث نبين الهجرات العربية الأولى إلى بلاد الساحل الشرقي ، مع التركيز على نشاط العرب التجاري مع ساحل شرقي أفريقيا وأثره في توثيق الصلات ، كما تبرز

(*) عميد كلية التربية بأبها – جامعة الملك سعود .

(*مجلة البحوث والدراسات العربية*، ع ٢٠ ، ١٩٩٢ ص٨٥ : ١٠٣)

العوامل الجغرافية التي ساعدت على اتصال تلك الشعوب بشرقى أفريقيا . ويتضمن البحث أيضا هجرة العرب من بلاد عمان إلى شرقى أفريقيا ، ودور عرب اليعاربة البارز في طرد البرتغاليين من مسقط ، ثم بداية تدخل عرب عمان من بعد ذلك في الصراع العربي البرتغالي في شرق أفريقيا ، فاستطاعت دولة اليعاربة أن تقضى على سيطرة البرتغاليين في شرق أفريقيا ، كما قضت على هذه السيطرة في كل من عمان والخليج العربي .

ويتضح في هذا البحث أن نجاح العمانيين كان يرتبط بعدة عوامل منها قوة عرب عمان وتفوقهم في الملاحة، بالاضافة إلى حالة الضعف والظروف المختلفة التى جابهت البرتغاليين أنفسهم ، مما ساعد على ظهور السيادة العمانية بصورة واضحة على الساحل الشرقى لافريقيا حيث أمتدت من مقديشيو شمالا إلى جزر المحيط الهندى جنوبا والتي كانت من أبرزها زنجبار التى أصبحت قاعدة ومركزا لحكم آل عمان في ذلك الجزء من بلاد العالم الاسلامي .

وسنعرض لدور عرب عمان في الحياة الافريقية العامة ، واستعراض عام لنظم الحكم وتقاليده : القضاء - الحسبة - المظالم ، وغيرها من نظم اسلامية طبقها العمانيون ، ثم الحياة الاقتصادية والحالة الاجتماعية ، والحياة الثقافيه ، ثم العلاقات الخارجية .

وبذلك يبرز دور العرب الواضح في تنمية تلك الشعوب ورقيها ، ويعكس أثر الحضارة العربية والاسلامية في تطور المنطقة وتقدمها في كافة مجالات الحياة ، ومختلف جوانب النشاط الاجتماعي والاقتصادي والثقافي .

بلاد اليمن وعمان وحضر موت والبحرين والاحساء هي المناطق التي بدأت تتدفق منها جماعات العرب منذ فجر التاريخ إلى الساحل الافريقي الشرقي وجزره المختلفة ، زنجبار وبمبا ومافيا وغيرها ، وهذه المنطقة هي التي أطلق عليها جغرافيو العرب اسم «بر الزنج» وتبدأ من مصوع شمالا حتى سوفالا جنوبي نهر الامبيزي جنوبا [١].

وقد تمكن عرب جنوبي الجزيرة العربية وخاصة عرب عمان من تأسيس المراكز التجارية في سهولة ويسر بعد أن بسطوا سيطرتهم وحلوا محل الفينيقيين والاغريق القدماء في الاستقرار . ومن بين المراكز التي أنشأها عرب عمان أوبون Opone في رأس قاردفووي Gaurdafui ولاهوم Lamu ورابتا Rhapta ، وربما مكث التجار والصيادون فترة قصيرة في تلك الأماكن ورجعوا مرة ثانية إلى بلادهم والأقلية منهم جعلت لها مكانا للاستقرار هناك [٢].

تدفقت الهجرات العربية الإسلامية إلى ساحل شرقى أفريقية وزنجبار منذ أيام الخلفاء الراشدين ، وازدادت في أيام الأمويين وخاصة في زمن الخليفة عبد الملك بن مروان لأسباب سياسية ودينية ، فضلا عن العامل الاقتصادي الذي كان بارزا في جميع الهجرات . ومن أبرز الهجرات العربية التي حدثت في أيام الخليفة عبد الملك بن مروان وخاصة من بلاد عمان ، كانت هجرة سليمان وسعيد التي لم تختلف الروايات كثيرا في بدايتها الحقيقية ، وقد تزعمها شيخان عربيان من عمان من الطائفة العبادية من قبيلة (٣) الأزد . . ومن الثابت أن هذه الهجرة تحركت من عمان خلال الفترة من ٧٥ – ٩٥هـ / ٦٩٤ – ٧٠٤م بقيادة سليمان وسعيد ابني عباد الجلندى من قبيلة الأزد ، وهما شيوخ العرب الذين حكموا عمان في أيام الدولة الأموية ، وثاروا في وجه الخليفة عبد الملك الذي اشتد في تنفيذ سياسة قبيلته لم يرض بها بعض العرب[٤] . ويهمنا في هذا الجانب أن أفراد هذه القبيلة قد طاب لهم المقام في ساحل شرقي أفريقيه ، وكانوا عاملا فعالا في توالي هجرات عربية استمر تدفقها إلى فجر العصور الحديثة ، وتمكنت بذلك من تكوين دولة اسلامية امتدت على طول الساحل الشرقي لافريقية وجزره المقابله التي كان من أهمها جزيرة زنجبار . وبعد أن دانت للقبائل العربية السيطرة على أجزاء السواحل المختلفة عملوا على نشر الاسلام والثقافة العربية الاسلامية [٥] .

ومع ازدهار الاسلام كدين ودولة تدفقت إلى تلك الجهات مجموعات ضخمة من دعاة الاسلام من عرب وغيرهم ، فأنشأوا مراكز عربية ثابتة ، ونشروا الاسلام بين القبائل الافريقية الساحلية ، والقاطنة في الجزر المطلة على ذلك الساحل . وقد حمل دعاة الاسلام إلى هذه البلاد حضارة ذات مظاهر ثلاثة :

١ – طابع الحضارة العربية من حرية العقيدة وحرية الفكر وعدم الجمود .

٢ – ثقافة عربية اسلامية جامعة شاملة لمختلف العلوم والفنون .

٣ – الدين الاسلامي نفسه الذي يتلاءم مع كل زمان ومكان .

وهكذا كان المهاجرون العرب والمسلمون يحملون طابعا جديدا بالاضافة إلى نشاطهم التجاري القديم . وهذا الطابع الجديد يتمثل في عقائدهم ومذاهبهم التي سادت في بلادهم ، نتيجة لظهور الاسلام ، وما تلاه من نشوء الفرق والمذاهب الواحدة تلو الاخرى لنشر الدعوة ، وتحكمت في ذلك عوامل اقتصادية أو سياسية أو دينية أو اجتماعية ، إذ أنها جميعا لم تصل في وقت واحد [٦] .

ولقد ساعدت العوامل الجغرافية على نشاط حركة الملاحة بين منطقة الخليج وبين ساحل أفريقية الشرقي ، منها القرب الجغرافي ، ومنها نظام الرياح الموسمية في المحيط الهندي ، وكانت لهم رحلتان على الأقل في العام ، رحلة الصيف، حيث تدفعهم الرياح الموسمية الجنوبية الغربية من خليج عمان وسواحل الجزيرة الجنوبية نحو الساحل الافريقي وجزره ، ورحلة الربيع حيث تدفعهم الرياح الموسمية نحو الشمال الشرقي إلى سواحل الجزيرة والخليج العربي وسواحل الهند حتى بلاد المشرق الاقصى(٧) . وقد وصف الجغرافيون العرب الرحلات العربية من عمان إلى شرقى أفريقيا من أمثال ياقوت والمسعودى وغيرهم . وكان المسعودي يذرع البحر إلى شرقي أفريقيا من عمان ، وتحدث عن آخر رحلة بقوله : وذكر جماعة من نواخذة هذا البحر من العمانيين والسيرافيين وهم أرباب المراكب أنهم يشاهدون في هذا البحر (٧) .

كذلك أشارت بعض المصادر أن سكان جزيرة زنجبار وهم من جماعات البانتو Bantu هم أكثر شعوب شرق أفريقيا تأثرا بالعرب ، واختلاط العرب بالبانتو والافريقيين بوجه عام أدى إلى ظهور عنصر جديد هو العنصر السواحيلي (٨).

ويقسم السواحيليون أنفسهم إلى فرعين رئيسين بناء على اعتقادهم في أصل أسلافهم :

١ - السواحيليون الشماليون ، ويدعون الانتساب إلى زيد بن علي زين العابدين الذي هاجرت جماعته إلى ساحل شرقي أفريقيا بعد مقتل زعيمهم زيد بن علي على أيدي جماعة الخليفة هشام بن عبد الملك (٩) .

٢ - السواحيليون الجنوبيين الذين يدعون الانتماء إلى أسرة الحسن بن علي الشيرازي الذي أسس سلطنة الزنج الاسلامية ، وعاصمتها كلوة عام ٥٦٣ هـ - ٩٧٥ م ، واستمرت هذه السلطنة تحكم في ساحل شرقي أفريقيا حتى مجئ البرتغاليين بقيادة فاسكوداجاما في أعقاب رحلات الكشف الجغرافي في عام ٩٠٣ هـ - ١٤٩٧ م.(١٠).

والسواحيليون الجنوبيون هم الذين تأثروا بالفرس ثم بعرب عمان الذين حكموا في زنجبار ردحا من الزمن لفترة امتدت من القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر . وكان مقر الحكومة العربية العمانية طوال القرن التاسع عشر في جزيرة زنجبار ، وكانت حكومة آل البوسعيد هي المسيطرة على زنجبار وماحولها من الجزر بل امتد نفوذها إلى أجزاء عديدة من الساحل (١١) .

والثابت أن دولة اليعاربة في عمان وقيامها قد ارتبط بحركة الكفاح ضد البرتغاليين في الخليج العربي (١٢) فقد بذل ناصر بن مرشد (١٠٣٤ - ١٠٥٩ هـ) (١٦٢٤ م - ١٦٤٩م) محاولات جادة لتخليص ساحل عمان من الحاميات البرتغالية ، لذلك سارع أهالي ساحل شرقي أفريقيا في ممبسه وزنجبار لطلب النجدة من سلطان عمان يومئذ سلطان بن سيف ١٠٥٩ -١٠٧٢ هـ / ١٦٤٩ -١٦٦٨ م ، فأسرع العمانيون بدافع الجهاد الديني ، فلبوا نداء الواجب الديني ، وظهرت المراكب العمانية أمام سواحل أفريقية الشرقية ، وابلى العمانيون بلاء حسنا حتى تمكنوا من طرد البرتغاليين من ممبسة (١٣).

علما أن العمانيين لم يقوموا بعمل حاسم في شرقي أفريقيا إلا في نهاية القرن السابع عشر ، ذلك أنه كان عليهم أن يدعموا قوتهم البحرية أولا قبل مواجهة البرتغاليين بصفة حاسمة ، لذلك تم لهم النصر ، فاستولوا على كل الجزر ومدن كلوه وبيت Pate وممبسه وغيرها من بلدان الساحل الشرقي الافريقى . لذلك أصبحت القوة البحرية العمانية مصدر قلق حتى بالنسبة للاساطيل الانجليزية والهولندية في المحيط الهندي في القرن الثامن عشر (١٤).

فبعد أن دعم العمانيون وخاصة أئمة اليعاربه نفوذهم في الساحل خاصة في المراكز الرئيسية ، اختاروا أسرة الحادث لجزيرة زنجبار، واسرة بني نبهان لجزيرة بيت Pate وينتمى النبهانيون (١٥) العرب إلى إحدى الأسر الحاكمة القديمة في عمان والتي حكمت هرمز قبل مجئ البرتغاليين في القرن الخامس عشر(١٦) . أما المزروعيون فقد تمكنوا من تأسيس أسرة حاكمة في ممبسه كان مؤسسها محمد بن عثمان المزروعى في عام ١١٥٢ / ١٧٣٩(١٧) .

إلا أن الصراع احتدم بين هذه الأسر الحاكمة ، فتمكن المزروعيون في ممبسه من الاستقلال عن عمان ، واتسم نفوذ اليعاربه على الساحل الشرقى بالضغط ، كذلك تمكن المزروعى من انتزاع زنجبار من محمد بن جعد البوسعيدى في عام ١١٦٧هـ/١٧٥٣م ، إلا أن سعود بن ناصر تمكن من القضاء على حركة المزورعي وقتله في نفس ذلك العام .

كذلك كان للمنازعات الاسرية التي وقعت في عمان بعد وفاة الامام أحمد بن سعيد ١١٨٩ - ١١٩٩هـ / ١٧٧٥ - ١٧٨٤ أثر كبير على النفوذ العربي الاسلامي في ساحل شرقى أفريقيا . كما كان اهتمام آل البوسعيد الأول بالزعامة الدينية بين الاباضيين في زنجبار وغيرها. ولكن لما تولى سلطان بن أحمد الحكم ١٢٠٨ هـ - ١٢٢٠ هـ / ١٧٩٣ -١٨٠٤ عاد اهتمام الحكام إلى التجارة والسياسة (١٩) .

استمرت الاحداث على ذلك المنوال بين عمان وساحل أفريقيا الشرقى إلى أن نجح السيد سعيد بن سلطان من تأسيس سلطنة زنجبار الحديثة ١٢٢١ - ١٢٧٣هـ/ ١٨٠٦م - ١٨٥٦ م ، والمعروف أن السيد سعيد تولى الحكم في عمان عام ١٢٢١هـ/١٨٠٦م ، ونقل مقر حكمه إلى زنجبارفي عام ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠ م . وكان السيد سعيد يرمي إلى توطيد حكمه في عمان وبتوجيه سياسته صوب الخليج العربي ، إلا أنه كان يوزع اقامته بين العاصمتين مسقط وزنجبار للاشراف بنفسه على مراحل النمو والتطور والعمل على نشر الثقافة الاسلامية في ذلك الجزء الافريقى ، وخاصة أن كفة استقراره قد رجحت في زنجبار خلال الفترة مابين ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م حتى وفاته عام ١٢٧٣ هـ/ ١٨٥٦م[٢٠] وقد أشارت بعض المصادر إلى أن الهدف الاقتصادي كان أقوى الدوافع التي دفعت السيد سعيد بن سلطان للاقامة في زنجبار . ويقول كوبلاند Cupland بصدد ذلك : ولما كانت التجارة هي الشغل الشاغل لسعيد بن سلطان فلم يكن هنالك مكان آخر في ممتلكاته أكثر ملاءمة لتنفيذ سياسته الاقتصادية من زنجبار ، ولذلك انتقلت العاصمة إلى زنجبار ولم تنتقل إلى ممبسه أو غيرها من المدن الهامة في شرق أفريقيا التي تنافس زنجبار في التاريخ والثروة [٢١] .

لقد ضم الحكم العربي في زنجبار وبعض أجزاء الساحل خلال الفترة مابين ١١٥٤ -١٢٧٣ هـ / ١٧٤١/١٨٥٦ م مجموعات من السكان يمكن تقسيمها إلى عدة أقسام متباينة :

١ - الوطنيون ، وهي القبائل الأفريقية التي وفدت إلى زنجبار وماحولها في القرون الأولى للميلاد ، وهي عناصر من أصل حامي ، ومن أهمها قبائل البانتو والبوشمن[٢٢] Bushman .

٢ - المولدون : وهم العنصر السواحيلي الذين كانوا نتيجة اختلاط العرب بالمواطنين الافارقة ، وخاصة عندما قل عدد النساء العربيات ، وربما انعدمت هجرة النساء العربيات إلى أفريقيا ، مما أدى إلى ظهور العنصر السواحيلي . والعنصر السواحيلي يتكلم لغة تعتبر خليطا من اللغة العربية واللهجات الافريقية ، وهي التي عرفت باسم اللغة السواحيلية . وقد ساد الاسلام بين قبائل هذا العنصر واعتنقه الكثير منهم .[٢٣].

٣ - المستوطنون : وهم العرب والهنود والفرس .

وقد كوّن عرب عمان ارستقراطية حاكمة ، واستطاعوا أن يسيطروا على تلك الشعوب الزنجية بفضل مدنهم الحصينة ، وأسلحتهم المتقدمة ، وسفنهم المتعددة . ويظهر أنه قد ساد بينهم نوع من التفاهم والتعاون . ونستطيع أن نستخلص أن المجتمع في شرقي أفريقيا انقسم إلى عدة طبقات ، لعبت كل منها دورها في حياة الساحل والجزر التي حوله والتي كان من أهمها جزيرة زنجبار . وينقسم العرب في زنجبار بصفة خاصة إلى أربعة أقسام :-

أولا : عرب الحضارمة :

وهم معروفون بحب الهجرة في جميع أنحاء المحيط الهندي ، وقد اشتغل معظمهم بالاعمال اليدوية ولا سيما حمل البضائع في الموانئ ، وهي مهنة اتسعت نتيجة للنشاط التجارى الزائد في زنجبار ، بالاضافة إلى التجارة .

ثانيا : عرب الكومور :

ويبدو أن هؤلاء هم التجار الذين كانوا يعملون في التبادل مع جزر الكومور ، فلما نشأت دولة زنجبار آثروا الاستقرار بها كمحيط لأعمالهم ، على أنه كان يطلق على جيمع المسلمين الذين يأتون للتجارة مع هذه الجزر كلمة «عرب» دون تحقيق في الاصل .

ثالثا : عرب الساحل :

وهم أولئك العرب الذين استقروا في زنجبار وشواطئ شرق أفريقيا قبل عهد سعيد ابن سلطان .

رابعا : عرب عمان :

وهم الذين وفدوا مع السلطان عند انتقاله إلى زنجبار ، وكانوا يكونون الطبقة الارستقراطية كما سبق القول [٢٤] .

وبالاضافة إلى العنصر العربي ، كان هناك العنصر الشيرازى الفارسي الذي شارك في الزعامة مع العرب فترة طويلة قبل ظهور العمانيين في تلك الجهات . وفيما بعد وفدت قبائل عربية أخرى هي المزورعيون وبنو سعد وكلاهما له شهرته في تاريخ الساحل ، هذا

بالاضافة إلى الأشراف أحفاد الرسول صلى الله عليه وسلم وهؤلاء بدورهم لعبوا دورا كبيرا في نشر الاسلام وتعليم اللغة العربية وحفظ القرآن وتعليم الشريعة الاسلامية (٢٥) .

وكانت هناك طبقة الهنود ، وهؤلاء ارتبطوا بالمستوطنين العرب ارتباطا وثيقا ، لافي العصور القديمة فحسب ، بل في العصور الحديثة أيضا . وكان الهنود يسكنون سواحل ذلك المحيط ، ويتاجرون بين أجزائه المختلفة منذ فجر التاريخ (٢٦) .

ما يمكن أن نخلص إليه مما أسلفنا عرضه من معلومات موجزة هو دور عرب عمان البارز في نشر الاسلام والثقافة الاسلامية ، وتركيز الحكم العربي الاسلامي في شرقي أفريقيا . ولقد انتشر الاسلام بصورة أعمق وأوسع ، ولقى قبولا واعتناقا أكثر لدى المواطنين . وهذه الفترة بمثابة دائرة التحام ، أو الثقة بين ناشرى الاسلام ومعتنقيه . وهي كذلك مرحلة غرس وتأصيل النشأة الفعلية والتطور للحكم الاسلامي في زنجبار . وقد اتبع حكم العمانيين لزنجبار وبعض بلاد الساحل ، اتبعوا النهج الاسلامي في الحكم والقضاء ، وفي دوائر الأحوال الشخصية وفي الممارسات العامة في الحياة اليومية . وقد حمل حكام عمان في زنجبار بعض الألقاب الاسلامية مثل الإمام والسلطان والسيد . ولقب السيد عرفه العرب قبل الاسلام وهو مرادف لكلمة الشيخ (٢٧) .

كذلك انعكست الحضارة العربية والاسلامية على حياة الناس في تلك البلاد - ولاسيما على طبقة الحكام وعلى الصفوه المستنيرة - في أوجه مختلفة من الحياة العامة نذكر منها المأكل والمسكن والملبس والأدب .. إلخ .

ونتيجة لهذا المد الاسلامى في زنجبار وبلاد الساحل الافريقي ، والذي بهر القوى الارروبية المسيحية وصمد أمامها ، انتشرت الحضارة العربية الاسلامية على امتداد الساحل وجزر المحيط الهندى - ولاسيما الجزر المتاخمة للساحل . وقد تأثرت العديد من المدن والاقطار بهذا المد الحضارى العربي والإسلامي حتى صار بعضها قلاعا للتراث الاسلامي والحضارة العربية إلى عهد قريب . وذكر من بين هذه الاماكن مقديشيو وممبسه ومالندى وكلوه وزنجبار وبمبا ومافيا وموزمبيق وجزر القمر ومدغشقر . وبالرغم من الغزو العسكرى والثقافي الذى تعرضت له تلك الاماكن على أيدى القوى الأوربية المسيحية ، إلا أن بعض ملامح الحضارة العربية والاسلامية ماتزال تظهر جليّة في الحياة العامة في تلك الآماكن . وتكاد تهيمن هيمنة تامة على تاريخها وتراثها . والمستودعات الأساسية لهذا التراث

الحضارى هي الوثائق العربية الاسلامية المنتشرة على امتداد الساحل الشرقي الافريقي ، والتي تعتبر مساهمة عربية – أفريقية مشتركة وتراثا اسلاميا خالصا[٢٨] .

فمن حيث نظم الحكم ، نجد الطابع الغالب ، هو نظام الوراثة ، ليس فقط في منصب الحكم الأعلى ، شيخا كان أم سلطانا ، ولكن أيضا في بعض المناصب الهامة ، كولاية القضاء ، أو الامارة على بعض الاقاليم التابعة للمشيخة أو السلطنة . وكانت بعض الامارات التابعة للنبهانيين تتمتع بشئ من الاستقلال الداخلي في شئون الحكم والادارة مع وجود سلطة عليا عليها ممثلة في الامارة الحاكمة المسيطرة ، كما كانت مدن جزر بيت ومافيا الصغيرة تحكمها مجالس تحت اسم الوازى Wazee وكانت هذه المجالس يرأسها الشيوخ بالوراثة ، وهي مسئولة عن الاستقرار الداخلي ، ولها قوة التأثير في جباية الضرائب التي يدفعها الوطنيون للحكومة [٢٩] .

كذلك وجدت في بعض مدن الساحل وجزره بعض الألقاب والوظائف الأخرى ، مثل القاضى والمحتسب ووالى المظالم والكاتب وصاحب الاوقاف . والسلاطين والشيوخ تحيط بهم هالة من التقديس ، وهي تظهر بوضوح في المناسبات الدينية كضرب الطبول والقرن الخشبي . وتحيط بهم كذلك بهم مجموعة من الوزراء والامراء بجانب ذكر اسم الامام أو السلطان في خطبة الجمعة . ويمارس الحكام سلطاتهم بحرية مطلقة وتساعدهم أحيانا هيئة تسمى الديوان [٣٠] .

وكان القاضى أكبر شخصية في المدن العربية الساحلية ، ويلي السلطان مباشرة في الاهمية . فالقاضى رجل زاهد ، أو أن يختار من بين الزاهدين الذين صدقت ظواهرهم وبواطنهم، أو من الفقراء الصالحين. ويتمتع القاضى بمرتبة سامية منذ دخول الاسلام هذ ه البلاد ، وقد ذكر ابن بطوطه في هذا الجانب أن القاضي يلي الشيخ في الأهمية والمكانة الرفيعة [٣١] .

والفصل في القضايا تنظر فيه أحيانا هيئة مكونة من القاضى والوزراء وكاتب السر، وأربعة من كبار الأمراء ، وذلك للفصل بين الناس والنظر في الشكاوي . وما كان مفتقرا إلى مشورة السلطان كتبوا إليه فيه فيخرج من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره .

وللقضاة في هذه البلاد إلمام كامل بالفقه الاسلامي والقانون ، ويتطلعون في نصوص المذهب الشافعي وتعاليمه . والمذهب الشافعي هو المذهب السائد في تلك البلاد ، كما انتشر مذهب الاباضية الخوارج في داخل زنجبار . [٣٢] .

أما عن الحياة الاقتصادية ، فالواضح أن زنجبار وماحولها ومناطق الاقليم الجنوبي بصفة خاصة تتمتع بالغنى ، والثروة الطبيعية بتلك البلاد وفيرة جدا سواء من الناحية النباتية أو الحيوانية أو المعدنية . وكانت حاصلات زنجبار وماحولها تحتل قيمة تجارية كبيرة في أسواق الهلال الخصيب ومصر . وقد رأى العرب في هذه الحاصلات موردا تجاريا هاما . وكذلك تنمية هذه الثروة الاقتصادية من الناحية الزراعية يعود بثروة طائلة لمستغليها. ولذلك وجد النازحون العرب ميدانا زراعيا يستهويهم للإقامة في هذا الاقليم . وكان استغلال العرب لهذه المرافق ليس مقصورا على مصلحتهم فحسب ، بل ولمصلحة السكان الوطنيين أنفسهم [٣٣] . وفي زنجبار بصفة خاصة طاب المقام للجماعات العربية الوافدة من عمان وحضرموت ، حتى نجحوا في تأسيس وطن أحالوه إلى جنة خضراء يانعة ، وعرفوا أن هذه المنطقة صالحة للزراعة ، ويتوفر بها عدد كبير من رقيق الارض ، يحرثونها ثم يزرعونها، ويقومون بأعمال المنزل المختلفة حتي فقراء العرب الذين وصلوا إلى تلك الجهة أصبحوا في مرتبة الامراء وكبار الأغنياء [٣٤].

ونزح كثير من عرب عمان وحضرموت واليمن إلى الساحل لزراعة أشجار البخور المقدسة التى كانوا يزرعونها في بلادهم . وكانت أسواق الهلال الخصيب ومصر وحوض البحر المتوسط تتسابق نحو هذه المنتجات الهامة . ولذا نجد أن ساحل شرقى أفريقيا عامة وزنجبار بصفة خاصة لها المزايا الاقتصادية ، مما جذب إليها العرب تجاريا وزراعيا [٣٥].

وقد أعتمد العرب في بداية حياتهم على صيد الأسماك والحيوان البرى ، وعملوا في الزراعة لفترة من الزمن حتى تمكنوا من تطوير حياتهم ، ومارسوا التجارة على أوسع نطاق . وبسرعة مذهلة ازداد حجم ثروتهم ، وازداد دخلهم ، وتطورت قراهم الصغيرة إلى مدن كبيرة ، وأصبحت بدورها مراكز تجارية هامة .[٣٦]

وامتازت معظم بلاد الساحل وجزره بصفة عامة بانتاج بعض المحاصيل الزراعية . وجلب العرب الفواكه من الشرق ، واهتموا بزراعة الذرة والفول والارز في الارض الواقعة حول مجاري الانهار . الا أن هذه الزراعة كانت مقصورة على استهلاكهم المحلى . وزرعوا قصب السكر وشجر الكافور التى تجذب رائحتها التجار. وزرعوا كذلك الموز الذي كان غذاء رئيسيا لهم [٣٧].

كذلك أصلح العرب نظام الرى في زنجبار ، وشقوا الترع والقنوات ، بما يكفل الانتاج الزراعي إلى حد كبير ، وأقاموا المجارى ، ونهضوا بالزراعة والفلاحة نهضة مباركة كان لها أثرها العظيم في زيادة انتاج الحاصلات وتعدد أنواعها (٣٨).

وقام العرب بتعدين مناجم الذهب والفضة والنحاس والحديد . وأصبحت ثروتهم الرئيسية هي الدر واللؤلؤ والماس والياقوت ومعادن الذهب والفضة ومعادن الحديد ، والعنبر والأفاويد والعاج والخشب والقنا والخيزران (٣٩) . كما كانت لهم صناعات هامة مثل صناعة الحديد والمنسوجات القطنية (٤٠) .

واهتم العرب أيضا بتربية الجمل كحيوان عربي أصيل . ومن الصعب أن يتصور المرء أن الجمل قد أدخل إلى هذه الجهات من غير جزيرة العرب (٤١) . واعتنى العرب كذلك بتربية الماشية والأغنام عناية فائقة . وادخال تربية الإبل والاهتمام بتربية الاغنام والماعز هو أثر من الآثار العربية ، وكذلك حياة البداوة والتنقل وراء الامطار طلبا للرعي فن عربي أصيل ، عرف طريقه إلى هذا الاقليم عن طريق العرب (٤٢) .

أما عن صادرات العرب من تلك البلاد ، فكانت الصندل والعاج والذهب وريش النعام والعسل والبن والسمن والجلد والشمع والملح والموز واللؤلؤ والأصداف والصمغ واللبان . وكان العرب يقومون بتصدير هذه المنتجات إلى عمان ثم إلى الهند والصين . ويستورد العرب القمح في مقابل العاج وزيت النخيل والرقيق إلى مصر ، وتستورد من بلاد أخرى لعلها مصر والهند والصين(٤٤).

ومن هذا نستطيع أن نقف على مستوى الحياة العربية والثراء العريق ، وحياة الترف في زنجبار وبعض بلاد الساحل في تلك الفترة . فقد ذكر بعض المؤرخين أن الرخاء كان شاملا ، ومستوى الحياة عاليا ، ويستدلون على ذلك بأن السكان يرفلون في ملابسهم الحريرية والقطنية ، وأن النساء يلبسن حلية من الأحجار الكريمة والذهب والضعن ، وأن الحكام يعيشون في بذخ ظاهر . وقد أضافوا بأن مدن كلوه وزنجبار تجرى فيها الأنهار ، وحولها عدة قنوات ، ومياهها عذبة ، ويتاجر أهلها مع سوفالا (في روديسيا الآن) ويجلبون منها الذهب ، ويرسلونه إلى كل أنحاء الجزيرة العربية حتى الحبشة (٤٥).

لقد كانت التجارة مزدهرة ، وكانت البضائع الهندية من ملابس وأدوات الزينة تأتيهم عن طريق التجار العرب . وحالة الرخاء التي سبق وصفها لابد أنها تتطلب صناعا مهرة في

الفنون المعمارية ، صناعة الحلي ، صناعة التعدين والحياكة وغيرها من الصناعات السائدة في ذلك الحين . ومعني هذا أن أسباب الحياة جميعها من تجارة وزراعة وصناعة . وتقسيم العمل قامت على أكتاف العرب النازحين إلى هذه البلاد الذي كان غُفْلا من كل شئ .

أهتم الحكام العرب في زنجبار منذ البداية بتنظيم الادارة المالية على أن تطابق الشرع الاسلامي ، ومصادرها متعددة وهي الزكاة والغنيمة والخراج ، كذلك وجدت عندهم مكوس التجارة . وكانت الغنيمة والجزية تجمع من المدن الخاضعة وتتكون من الذهب والعاج . وكان حكام هذه البلاد المسلمون يكثرون من الانفاق في سبيل الله ، وراعوا الشرع في النظام المالي ، وبالاضافة إلى ذلك كانوا يقومون بدفع مرتبات للمجاهدين ، ومرتبات أخرى منتظمة للجند النظاميين (٤٦).

أما عن الجزية التي فرضتها زنجبار في أيام السيد سعيد البوسعيد وماقبل ذلك في عهود العمانيين من يعاربة ومزروعيين كانت هذه الجزية التي فرضتها زنجبار على بعض المدن التي أخضعتها في بعض الفترات مثل كيدايو وبيت وممبسه ، كانت عبارة عن عشرين مثقالا من الذهب يدفعها كل رئيس قبيلة لسلطان زنجبار . وفي بعض الآحيان فرضت زنجبار على أهل كيتوا الذين أخضعتهم لسلطانهم جزية تمثلت في محصول يدفعه كل من يفلح أرضا في تلك البلاد(٤٧). كذلك فرضت زنجبار جزية عبارة عن العاج على قبائل الماوردنق ، كما فرضت جزية على بعض القبائل الوثنية في مافيا Mafia كانت عبارة عن الذهب (٤٨) . وكانت الغنيمة تتكون من الذهب والفضة والعاج .(٤٩)

وقد ضربت في عهد بعض حكام زنجبار عملات برونزية وذهبية وفضية ، ولا يزال بعضها موجودا في المتحف البريطاني بلندن ، وتحمل في أحد وجهها اسم السلطان أو الحاكم ، وفي الوجه الآخر عبارات اسلامية (٥٠) . ووجدت في زنجبار وظيفة الحسبة وهي الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويقوم صاحبها المحتسب بالاشراف على الأسواق ومراقبة المكاييل والموازين ومعاقبة من يخل بالأمن (٥١) .

والواضح أن العرب والفرس نقلوا معهم إلى تلك البلاد مظاهر حضاراتهم ، فنقلوا النقش والحفر والنحت ، وأدخلوا معهم الاصول الرئيسية لفنهم من عقود البناء العالية الجميلة ، والفسيفساء المتحدة مع الرخام الملون ورسومهم الجميلة ، وظهر ذلك جليا في قصور زنجبار وغيرها من مدن الساحل . كما أدخل الفرس نظاما معماريا وهو البناء

بالحجارة ، بالاضافة إلى استعمال الاسمنت والرمل والخشب ، وكان فيها مهندسون برعوا في فن النقش والزخرفة وهندسة البناء (٥٢).

ولسكان زنجبار وبعض المدن الساحلية التي خضعت لسلطان العرب العمانيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر نجد نوعين من التقاليد ، نوع ناتج عن الديانة الاسلامية ، والنوع الآخر ناتج عن حياة الوطنيين البدوية ؛ ففي الاعياد ومختلف المناسبات تخرج القبائل في صفوف منتظمة تحت إمرة زعيمها ، وترقص الرقصات الوطنية ، وتشبه إلى حد كبير الرقصات العربية (٥٣).

لقد نفح العرب هؤلاء السكان حب الأدب وفنون الشعر ، وخرج من بينهم شعراء وخطباء وأصبح لهم أدب يعتزون به . وبرز كثير من العلماء والشعراء والأدباء باللسان العربي ، كالفقيه البليغ فخر الدين أبى عمرو عثمان بن علي بن محمد البارعي الزيلعي . كما أوردت المخطوطات العربية في زنجبار وبعض بلاد الساحل أسماء بعض العلماء والفقهاء والادباء ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر أسماءهم وبعض مساهماتهم :

١ - الشيخ برهان محمد مكلي ومن بين مساهماته : مرشد الفتيان ، الألفية الواضحة ، نفحة الوردة ، وتاريخ جزيرة القمر .

٢ - الشيخ محمد بن علي بن خميس البرواني ، ومن بين مساهماته : رحلة أبي الحارث ومقامات أبي الحارث .

٣ - الشيخ حسن بن عمر الشيرازي ، ومن بين مساهماته : وسيلة الرجاء ، مدارج العلي ، ومسلك المحتاج .

ويبدو أن العديد من هؤلاء العلماء من أصل عربي ، أو هكذا يودون أن يروا أنفسهم وذلك للتأثير العربي العميق في نفوس سكان البلاد الذين صاروا ألصق بالجزيرة العربية بوجه عام . وتتضح محاولة تأكيد الصلة بالمواطن العربي أو الاسلامي في أسماء هؤلاء العلماء مثل مكلي نسبة إلى المكلا وغير ذلك (٥٤) .

خاتمة

في خلاصة هذا العرض الموجز ، لدور عرب عمان وجنوبي الجزيرة العربية بوجه عام، على الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في بلاد وقعت تحت التأثير العربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر : أخلص إلى القول إلى أنه كان للموقع الجغرافي أثر واضح في أن تتصل هذه البلاد الأفريقية منذ الوهلة الأولى بالينبوع الأول للعروبة وأهلها ؛ إذ تقترب هذه المنطقة من بلاد اليمن وعمان مهد الحضارة العريقة التي عرفها العرب قبل الاسلام ، وقامت بينها علائق وثيقة امتدت خلال العصور الاسلامية المختلفة ، وازدادت متانة خلال حكم العمانيين حتى نهاية القرن التاسع عشر . وكان العامل الاساسى لتوثيق هذه العلائق هو المنفعة المتبادلة وخدمة الحضارة . وقد سافر طلاب العلم ، منهم الامراء من زنجبار إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة وعدن ومسقط وغيرها من المدن العربية والاسلامية ، وذلك لنهل علوم المعرفة ، وخاصة علوم الدين والفقه . وقد ربطت زنجبار علاقات متينة ببلاد العالم الخارجي في عهد الحكم العربي العماني ، وذلك لتوثيق العلاقات الثقافية والتجارية وغيرها ، مع مصر وبلاد الجزيرة العربية والهلال الخصيب والعراق ، وحتى بلاد الشرق الأقصى في الهند والصين ؛ فتمكن عرب عمان من تطوير هذه البلاد في كافة المجالات ، حتى زوال حكمهم ببداية التدخل الاوربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

الهوامش

1 - Coupland, R.A., East Africa and its Invaders, Oxford, 1983, P. 22 .

2 - Coupland, Ibid, pp. 2, 15, 16. 1 = Reusch, R., History of East Africa, New York, 1661 , pp. 17-18 .=

راشد البراوي ، الصومال الكبير حقيقة وهدف ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٠ =

حسن ابراهيم حسن ، انتشار الاسلام في القارة الافريقية ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٧-٢٨.

Stigand, C.N., The Land of Zing, London 1913, P.4. =

٣ - المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين ، ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، = جـ١ ، ص ١٠٧ ، القاهرة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م . =

Warner, A., art Mambassa, (Encyc . of Islam), Vol. III (2), P. 552 . = Stigand ,Op. Cit., P. 29. / = Reusch, P. 74.

٤ - عبد الرحمن زكي ، الاسلام والمسلمون في شرق أفريقيا ، القاهرة ١٩٦٥ ، جـ١ ، ص ٧٧ .

5 - Marsh & Kingsnorth, An Introduction to the History of East Africa, London 1966, P.8. /Gray, J., History of Zanzibar From the Middle Ages to 1858, London 1962, P.11.

٦ - فيليب حتى ، تاريخ العرب ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٦٦ - ٧٣./حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، جـ١ ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢٨ ./ =

Budge, E.A.W., A History of Ethiopia Nabia, and Abyssinia, Vol. 1, London 1928, P. 128.

7 - Coupland,Op. Cit, 15 Set / = Marsh, Ibid, P.8. //=

حوراني ، جورج فاضلو ، العرب والملاحة في المحيط الهندى في العصور الوسطى

وأوائل العصور القديمة ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٢٣ . / = Schoff, W.H., Somalia, Travel and Trade, (The Perplus of the Erythrean Sea) (Hammer Mogadiscio, 1912), P. 37. = مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ٩٩ .

٨ – زنجبار جزيرة منفصلة عن اليابس ، ويفصلها شريط ضيق عن ساحل شرقي أفريقيا أو قناة ضيقة أقل بكثير من عشرين ميلا ، وهي تقع بين خطي عرض ٥ – ٤٠ جنوبا ، ويبلغ طولها ٣٥ ميلا ، وتبلغ مساحتها ٦٤٠ ميلا مربعا أو أكثر من ذلك بقليل .=

Walter Fitzgerald, A frica, A social, Economic and Political Geography of its Major Regions, P. 226 Seq. / = Gray, Op Cit, pp. I - 30.=

وكلمة زنجبار معناها . ساحل الزنج «من الفارسية» «بار» بمعني الساحل ، وقد أطلقها المسلمون على جميع ماعرفوه عن ساحل افريقيا الشرقي ، وسموا البحر المقابل له ببحر الزنج (القسم الغربي من المحيط الهندي) وزنجبار أيضا قريبة من ساحل تنجانيقا ، نالت استقلالها في عام ١٩٦٣ ، ثم انضمت في اتحاد تنجانيقا ، وتم ميلاد تنزانيا في عام ١٩٦٤.

٩ – صلاح العقاد ، زنجبار ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١٢ – ٢١ .

10 - Duffy, James, Portuguese Africa, London 1961, P. 26, = Basil, W.&. Worsfold, Portuguese Nyassaland, London 1899, P. 22.

١١– صلاح العقاد ، المرجع السابق ، ص ٣٣ ومابعدها .

١٢– المرجع السابق ، ص ٣٢ ومابعدها .

١٣– زنجبار ، ص ٣٠ – ٣١ .

14- Coupland, Op. Cit, P. 69.

١٥– عبد الرحمن زكي ، المرجع السابق ، ص ١١٩ . =

Stigand, Op. Cit., P. 30 Seq. /= Reusch PP. 183 Seq.

16- Theal, G.M., Records of South Eastern Africa, Vol. 111, London 1899, PP. 210 - 216.

١٧- زنجبار ، ص ٣٣ ومابعدها .

١٨- زنجبار ، ص ٣٤ . ٣٥ ومابعدها .

١٩- زنجبار ، ص ٣٩ .

20 - Gray, Op. Cit, P. 30 Seq./ = Marsch Zoe, Op. Cit., P.5 Seq ./ Encyc.Brittanica, Art. Zanzibar, Vol. 23, P. 935.

21- Coupland, Op. Cit, PP. 25.

٢٢- حمدى السيد ، الصومال ، القاهرة ١٩٥٠ ص ٢٩٨ ومابعدها .

٢٣- محمد عبد المنعم يونس ، الصومال ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٦٧ ./ = Reusch, Op. Cit. P. 76.

٢٤- صلاح العقاد . نفس المرجع ، ص ٦٢ .

25- Trimingham, S., Islam in East Africa, London 1964, p. 34.

٢٦- محمد عبد المنعم يونس ، المرجع السابق ، ص ٦٧ . أنظر كذلك : جلال يحيي ، التنافس الدولي في شرق أفريقيا ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٢ .

٢٧- ياقوت الحموى (الشيخ الامام شهاب الدين أبو عبد الله ، ط ١٢٢٩ م). معجم البلدان ، بيروت ١٣٢٤هـ/١٩٠٦ ، جـ٨ ، ص ١٥٢ / أنظر أيضا : حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص٣٥٦ ومابعدها .

٢٨- سيد حامد حريز ، مساهمة علماء شرق أفريقيا في الحضارة العربية الاسلامية من خلال مخطوطاتهم ، ندوة العلماء الافارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية ، بغداد : معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٨٥ ، ص ١٣٨ -١٣٩ .

29- Trimingham, Ibid, PP. 16 - 17 .

30- Trimingham, Ibid, P. 18, Seq.

٣١- ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ، ط ٧٧٩هـ / ١٣٦٩ م : تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار ، القاهرة ، ١٣٢ ، ص ١٩١ .

٣٢- طرخان ، ابراهيم علي ، الاسلام والممالك الاسلامية في الحبشة (القاهرة ١٩٥٩ - ص ٤٢ ، / أحمد الياس حسين ، سير الاباضية ، (تحقيق) .

٣٣- محمود طه أبو العلا ، المؤثرات العربية في شرق أفريقيا (محاضرة ألقيت بالجمعية الجغرافية بالقاهرة ١١ مايو ١٩٦٠ م ، ص ٣) .

34 - Guillian, M., Documents Sur L'Histore, Goegraphic de L'Afrique Orientale, (3) Rols, Vol. (1) Paris 1956, PP. 299-300. /= See also : Reusch, Op. Cit., P.75 .

٣٥- محمود طه أبو العلا ، ص ٣ .

36- Reusch, Ibid, P. 76.

٣٧- غربال ، محمد شفيق ، الموسوعة العربية الميسرة ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١١٣٧ .

٣٨- عبد الرحمن زكي ، المرجع السابق ، ص ٩١./ - أنظر أيضا :

Freeman &. Grenville, The East African Coast (Select Documents From the First to the earliest Nineteenth Century.) Carend on Press 1962., P. 19.

٣٩- عبد الرحمن زكي ، نفس المرجع ، ص ٩٢ .

٤٠- أحمد حفني القضائي الازهري ، الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان ، القاهرة ١٣٢١هـ / ٩٠٢ـ م، (ق).

٤١- محمود طه . أبو العلا ، ص ٢١ .

٤٢ - محمود طه . أبو العلا ، ص ٢١ .

٤٣- البستانى ، دائرة المعارف ، مجلد ١١ ، ص ٧١. // الموسوعة العربية الميسرة ، ص ١٣٣٧ . // حوراني ، فاضلو ، العرب والملاحة في المحيط الهندى ، ص ٨٢ - ٨٣ .

٤٤- حمدى السيد . المرجع السابق ، ص ٣١٨ - ٣٢٦ .

45- Dames, M.L. S. Hakuyt, The Book of Daurte Barbosa, Vol.3 (1), PP. 6 - 29.

46- Trimingham, Op. Cit, P. 16 Seq .

47- Stigand, Op. Cit., PP. 43-89./ = Reusch, Op. Cit, P. 185.

48-Reusch, Ibid, P. 173. / Freeman, Op. Cit., P.39.

49- Reusch, Ibid, P. 123.

50- Ibid, PP. 170 - 175 .

51- Trimingham, Ibid, P. 16 .

٥٢- عبد الرحمن زكي ، المرجع السابق ، ص ٧٩ - ٨٠ .

٥٣- صوار . أحمد .الصومال الكبير والساحل ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١١ .

٥٤- حريز ، مساهمة علماء شرق أفريقيا في الحضارة العربية الاسلامية ، ص ١٤١ .



OMAN'S ROLE IN THE DIFFUSION OF ARAB AND ISLAMIC CULTURE IN ZANZIBAR AND EAST AFRICA (1744 - 1856)

Dr.Abdel-Wahaab S. BaBa'ir (*)

This paper aims at reviewing the role of the Arabs in Oman in spreading Arab and Islamic culture, not only in Zanzibar and East Africa, but also all over the coastal countries of the Indian Ocean. Omani influence reached its zenith during the 18th and 19th centuries. The geographical location of Oman lies behind the success of this process of culture diffusion. Close relations have been established since time immemorial between Oman, Yemen and the eastern litoral of Africa. Such relations were primarily based on cultural exchange and mutual benifit in persuit of knowledge and trade. Omani influence extended even beyond the sphere of the Indian Ocean to other remote regions in the Far East. Their role in the cultural and economic development of such areas cannot be overlocked in any conceivable way.

* * *

(*) Dean of The Faculty of Education-King Saud University - (Abha).